

تفسير البحر المحيط

@ 169 @ فائدة للتكلف والتعسف في الاستئناف فيما هو ظاهر التعلق بما قبله والارتباط به . وقد وجه الزمخشري وجه الاستئناف بأنه لما ذكر أن الكتاب اختص المتقون بكونه هدى لهم ، اتجه لسائل أن يقول : ما بال المتقين مخصوصين بذلك ؟ فأجيب بأن الذين جمعوا هذه الأوصاف الجليلة من الإيمان بالغيب ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق ، والإيمان بالمنزل ، والإيقان بالآخرة على هدى في العاجل ، وذوو فلاح في الآجل . ثم مثل هذا الذي قرره من الاستئناف بقوله : أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم (الأنصار الذين قارعوا دونه ، فكشفوا الكرب عن وجهه ، أولئك أهل للمحبة ، يعني أنه استأنف فابتدأ بصفة المتقين ، كما استأنف بصفة الأنصار . .

وعلى ما اخترناه من الاتصال يكون قد وصف المتقين بصفات مدح فضلت جهات التقوى ، ثم أشار إليهم وأعلم بأن من حاز هذه الأوصاف الشريفة هو على هدى ، وهو المفلح والاستعلاء الذي أفادته في قوله : { عَالَى هُدًى } ، هو مجاز نزل المعنى منزلة العين ، وأنهم لأجل ما تمكن رسوخهم في الهداية جعلوا كأنهم استعلوه كما تقول : فلان على الحق ، وإنما حصل لهم هذا الاستقرار على الهدى بما اشتملوا عليه من الأوصاف المذكورة في وصف الهدى بأنه من ربهم ، أي كائن من ربهم ، تعظيم للهدى الذي هم عليه . ومناسبة ذكر الرب هنا واضحة ، أي أنه لكونه ربهم بأي تفاسيره فسرت ناسب أن يهيد لهم أسباب السعادتين : الدنيوية والأخروية ، فجعلهم في الدنيا على هدى ، { وَفِي الْآخِرَةِ * هُمْ الْمُفْلِحُونَ } . وقد تكون ثم صفة محذوفة أي على هدى ، وحذف الصفة لفهم المعنى جائز ، وقد لا يحتاج إلى تقدير الصفة لأنه لا يكفي مطلق الهدى المنسوب إلى الله تعالى . ومن لابتداء الغاية أو للتبعيض على حذف مضاف ، أي من هدى ربهم . .

وقرأ ابن هرمز : من ربهم بضم الهاء ، وكذلك سائرهما آت جمع المذكر والمؤنث على الأصل من غير أن يراعي فيها سبق كسر أو ياء ، ولما أخبر عنهم بخبرين مختلفين كرر أولئك ليقع كل خبر منهما في جملة مستقلة وهو أكد في المدح إذ صار الخبر مبنياً على مبتدأ . وهذان الخبران هما نتيجتا الأوصاف السابقة إذ كانت الأوصاف منها ما هو متعلقة أمر الدنيا ، ومنها ما متعلقة أمر الآخرة ، فأخبر عنهم بالتمكن من الهدى في الدنيا وبالفوز في الآخرة . ولما اختلف الخبران كما ذكرنا ، أتى بحرف العطف في المبتدأ ، ولو كان الخبر الثاني في معنى الأول ، لم يدخل العاطف لأن الشيء لا يعطف على نفسه . ألا ترى إلى قوله تعالى : { أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } بعد قوله : { أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ } كيف جاء بغير

عاطف لاتفاق الخبرين اللذين للمبتدئين في المعنى ؟ ويحتمل هم أن يكون فصلاً أو بدلاً
فيكون المفلحون خيراً عن أولئك ، أو المبتدأ والمفلحون خبره ، والجملة من قوله : هم
المفلحون في موضع خبر أولئك ، وأحكام الفصل وحكمة المجيء به مذكورة في كتب النحو . .
وقد جمعت أحكام الفصل مجردة من غير دلائل في نحو من ست ورقات ، وإدخال هو في مثل هذا
التركيب أحسن ، لأنه محل تأكيد ورفع توهم من يتشكك في المسند إليه الخبر أو ينزع فيه ،
أو من يتوهم التشريك فيه . ألا ترى إلى قوله تعالى : { وَأَنزَّلَهُ هُوَ أَصْحَابَكَ
وَأَنزَلْنَاهُ هُوَ أَمْهَاتَ وَأَحْيَا } ، { وَأَنزَّلَهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى
{ ، وقوله : { وَأَنزَّلَهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى } ، { وَأَنزَّلَهُ
أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى } ، كيف أثبت هو دلالة على ما ذكر ، ولم يأت به في نسبة خلق
الزوجين وإهلاك عاد ، إذ لا يتوهم إسناد ذلك لغيره تعالى ولا الشركة فيه . وأما الإضحاك
والإبكاء والإماتة والإحياء والإغناء والإقناء فقد يدعي ذلك ، أو الشركة فيه متوافق كذاب
كنمرود . وأما قوله تعالى : { وَأَنزَّلَهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرِى } ، فدخل هو للإعلام بأن
هو